أهم الوسائل العلاجية لظاهرتي الغلو والتطرف الطاغيتين على واقع التدين المعيش

الأستاذ الدكتور نصر سلمان
جامعة الأمير القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة

مقدمة :

إن الغلو والتطرف يمثلان مجاوزة الحدّ، الذي حدّده الشرع، ليلتزم به المكلف، قال تعالى : ﴿ **يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه** ﴾ [1]

فهذا الخطاب موجه للنصارى الذين قالوا على الله غير الحق، وذلك بمخالفتهم كتابهم بالإفراط، والغلو، وذلك بقولهم أشياء يزعمون أنها من دينهم، إذ جعلوا عيسى عليه السلام إلها، وقد دفعهم لذلك غلوّهم في الاعتقاد بما يتعلق به عليه الصلاة والسلام، فبيّن لهم الله تعالى في هذه الآية صفات ثلاث للمسيح هي : صفة الرسالة، وكلمة الله ألقيت إلى مريم، وكونه روحا من عنده تعالى، وأنّ ما زاد على هذه الصفات يعدّ خروجا منهم عن حدود الدين، وغلوّا فيه وبالتالي يعدّ باطلا، مردودا. [2]

قال الدكتور محمد الشريف الرحموني : "وإذا كان النهي عن الغلوّ في الدين موجها – في هذه الآية – إلى النصارى لما جرّه عليهم من بلايا، فإنّ فيه عبرة واعتبارا للمسلمين : فهم أولى بالانتهاء عن الغلو من غيرهم، وأحق بهذا الخطاب ممن سواهم، حيث إنّ دينهم دين الرحمة، واليسر والعدل، والاعتدال يضع كل شيء موضعه، وينزل الناس منازلهم، فلا إفراط، ولا تفريط، ولا تقتير، ولا تبذير، ولا من ّ ولا سرف، ولا وكس، ولا شطط" [3]

كما أنّ الناظر في نصوص السنة النبوية الشريفة يرى فيها كمّا هائلا من الأحاديث الدالة عن النهي عن الغلو والتطرف اللذين يوقعان في الحرج، والمشقة، ومن ذلك ما رواه سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – قال "لما كان من أمر

عثمان بن مظعون، الذي كان من ترك النساء، بعث إليه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ، فقال : "يا عثمان إني لم أومر بالرهبانية، أرغبت عن سنتي؟"، قال: لا يا رسول الله، قال :"إنّ من سنتي أن أصلي وأنام، وأصوم وأطعم، وأنكح وأطلق، فمن رغب عن سنتي، فليس مني. ياعثمان إنّ لأهلك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا". قال سعد : فو الله لقد كان أجمع رجال من المسلمين على أنّ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إن هو أقرّ عثمان على ما هو عليه أن نختصي فنتبتل[4].

هذا نموذج من السنة النبوية الشريفة نبينا به على غيره من النصوص الكثيرة، التي تملأ كتب السنة، والتي جاءت ناهية عن الغلو، الذي ينافي الفطر السليمة، ويخرج صاحبه من الوسطية، والاعتدال، إلى إيقاع نفسه في الحرج والضيق، والتطرف والغلو، هذه الأشياء التي يضرّ بها نفسه، قبل الإضرار بالآخرين، إذ بغلوّه يحرج نفسه وذلك بمنعها عمّا أحلّ الله تعالى، وصدق الله العظيم إذ يقول: **﴿ قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾**[5].

بعد هذه المقدمة الموجزة التي توضح نهي الإسلام عن الغلو و التطرف ، و تبين أن المسلمين أولى من غيرهم في تركهما ، و الابتعاد عن الوقوع في شراكهما ، نود طرح مجموعة من النقاط التي نحسب أنها من الوسائل الفعّالة في علاج ظاهرتي الغلو و التطرف التي غزت المجتمعات العربية و الإسلامية ، و جرت عليها كثيرا من الآلام و الويلات .

و سنتناول هذه الوسائل عبر النقاط الآتية :

أولا ــ بث ثقافة التيسير و رفع الحرج عن الناس من قبل الدعاة و متصدري الفتوى إنّ من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية الغرّاء، وأهدافها السامية، هو الرفق بالناس، وذلك بدرء المفاسد عنهم، وجلب المصالح لهم، ولا شكّ أنّ درء الحرج والضيق عنهم من أعظم هذه المقاصد، وأجلها، وذلك لتماشيه مع روح الدين الإسلامي الحنيف، الذي يقوم على التيسير، والسهولة، ونفي المشقة، والعنت، والإثم، والجناح.

إذ المتصفح لكتاب الله ﷻ يجد فيه كما هائلا من النصوص الدالة على التيسير ورفع الحرج عن المكلفين، و نبذ الغلو و التشدد، و هذا إن دل على شيء

فإنما يدل على رحمة الله بعباده و منه و كرمه عليهم، بأن رفع عنهم إصر المشاق وأغلال التعسير و الغلو و التطرف في آيات كثيرة ، نحاول اجتزاء بعض منها ، و إيراده على سبيل التمثيل لا الحصر و ذلك على النحو الآتي :

1 – ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [6] .

2 ــ ﴿ إنّ مع العسر يسرا إنّ مع العسر يسرا ﴾ [7] .

بعد نزول هذه الآية خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو مسرور يضحك وهو يقول : لن يغلب عسر يسرين لن يغلب عسر يسرين إنّ مع العسر يسرا[1].

قال الجصاص معلقا : يعني أن العسر المذكور بدءا هو المثنى به آخر لأنه معرّف بالألف واللام، فيرجع إلى المعهود المذكور، واليسر الثاني غير الأول، لأنه منكور، ولو أراد الأول لعرّفه بالألف واللام" [8]

3) ﴿لا يكلف الله نفسا إلاّ وسعها ﴾ [9].

4) ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ [10].

5) ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتمّ نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾ [11]

6) ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم﴾ [12]

إنّ الناظر في جلّ كتب السنة النبوية الشريفة، يرى أنّ أصحابها عقدوا فيها أبوابا عديدة، ضمّنوها تلك السنن الحاثة على التيسير، ورفع الحرج، ودفع المشاق، سواء تعلق الأمر بجانب العبادات أو المعاملات بمفهومها الواسع، وسنورد جملة من هذه السنن الكثيرة، للتنبيه بها على غيرها وللتدليل بها على سماحة الإسلام ويسره، وذلك على النحو الآتي :

1) عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال : "إنّ الدين يسر ولن يشادّ الدين أحد إلاّ غلبه، فسددوا وقاربوا، واستعينوا بالغدوة [13] والرّوحة [14] وشيء من الدلجة"[15- 16].

قال ابن المنير :"في هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أنّ كل متنطع في الدين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة، فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملال، أو المبالغة في التطوّع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته كمن بات يصلي الليل كله،

يغالب النوم، إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل، فنام عن صلاة الصبح في الجماعة، أو إلى أن خرج الوقت المختار، أو إلى أن طلعت الشمس، فخرج وقت الفريضة، وفي حديث محجن بن الأدرع عند أحمد : "إنكم لن تنالوا هذا الأمر بالمغالبة، وخير دينكم اليسر". وقد يستفاد من هذا الإشارة إلى الأخذ بالرخصة الشرعية، فإنّ الأخذ بالعزيمة في موضوع الرخصة تنطع، كمن يترك التيمم عند العجز عن استعمال الماء، فيفضي به استعماله إلى حصول الضرر" [17].

2) عن عائشة زوج النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنها قالت : ما خيّر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما مالم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله "عز و جل" [18].

3) عن عبد الله بن عمرو قال : رأيت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عند الجمرة، وهو يسأل، فقال رجل : يا رسول الله نحرت قبل أن أرمي، قال : "ارم و لا حرج" قال آخر : يا رسول الله : حلقت قبل أن أنحر، قال : "انحر ولا حرج" قال : فما سئل عن شيء قدّم ولا أخّر إلا قال: "افعل ولا حرج" [19].

بيّن الحديث أنّ من قدّم عملا من هذه الأعمال على الآخر لا إثم عليه، ولا دم، وذلك رفعا للحرج.

قال القرطبي : "روي عن عباس : ولم يثبت عنه أنّ من قدّم شيئا على شيء فعليه دم" وبه قال سعيد بن جبير وقتاده والحسن، والشافعي، وجمهور السلف، والعلماء، وفقهاء أصحاب الحديث، وذلك استنادا لقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : "لاحرج" فهو ظاهر في رفع الإثم والفدية معا، لأنّ اسم الضيق يشملهما، كما قال الطحاوي: " ظاهر الحديث يدل على التوسعة في تقديم بعض هذه الأشياء على بعض" [20].

4) عن أنس بن مالك عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : "إني لأدخل في الصلاة، فأريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبيّ، فأتجوّز ممّا أعلم من شدّة وجد أمه من بكائه" [21].

5) عن عروة أنّ عائشة ــ رضي الله عنها ــ أخبرته أنّ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ خرج ليلة من جوف الليل، فصلى في المسجد، وصلى رجال بصلاته، فأصبح الناس فتحدثوا، فاجتمع أكثر منهم، فصلى، فصلوا معه،

فأصبح الناس، فتحدثوا، فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصلّى بصلاته، فلمّا كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله فلم يخرج، حتى خرج لصلاة الصبح، فلمّا قضى الفجر أقبل على الناس، فتشهد ثمّ قال : أمّا بعد فإنه لم يخف عليّ مكانكم، ولكني خشيت أن تفرض عليكم، فتعجزوا عنها، فتوفي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والأمر على ذلك.[22]

6) عن أبي موسى قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا بعث أحدا من أصحابه في بعض أمره قال : "بشروا ولا تنفروا ويسّروا ولا تعسّروا" وفي حديث أبي التياح قال سمعت أنس بن مالك يقول : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : "يسروا ولا تعسّروا وسكّنوا ولا تنفروا" وفي رواية أبي بردة عن أبيه عن جده أنّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعثه ومعاذا إلى اليمن، فقال :"يسرا ولاتعسّرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا"[23].

7) عن جابر بن عبد الله أنّ معاذا كان يصلي مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يأتي قومه فيصلي بهم، فجاءت ذات ليلة فصلى العتمة، وقرأ البقرة، فجاء رجل من الأنصار فصلّى، ثم ذهب، فبلغه أن معاذا ينال منه، فشكى ذلك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمعاذ :"أفاتنا فاتنا أو فتانا فتانا" ثم أمره بسورتين من وسط المفصّل.[24]

ثانيا ـ الاهتمام بمنصب الفتوى و ثقافة المفتي :

"لا شك أن الفتوى منصب عظيم الأثر، بعيد الخطر، إذ المفتي قائم مقام النبي ﷺ فهو نائب عنه في تبليغ الأحكام، وتعليم الأنام، وإنذارهم بها لعلهم يحذرون، وهو إلى جانب تبليغه عن صاحب الشريعة قائم مقامه في إنشاء الأحكام في المستنبط منها بحسب نظره واجتهاده، كما اعتبره الإمام ابن القيم موقعا عن رب العالمين، هذا وقد عرف السلف للفتوى كريم مقامها، وعظيم منزلتها، وأثرها، في دين الله وحياة الناس، فكانوا يتهيبون من إصدارها، ويتريثون في أمرها، ويعظمون من قال: "لا أدري" وقد كان الصحابة -رضوان الله عليهم- مع ما رزقهم الله به من علم غزير، ونفاذ للبصيرة، وشرف للصحبة، كثيرا ما يتوقفون عن الفتوى، ولا يجيبون، بل إن الواحد منهم كان إذا سئل تكلم وإنه ليرعد"[25]

فإذا كانت مكانة الفتوى بهذه الخطورة فإنه ينبغي ألا يفسح المجال للمتفيقهين والمتطفلين و أشباه العلماء بتبوإ منصبها الجليل ، فكم من الفتاوى المشحونة بالغلو والتطرف ، و التي جرت على بعض البلدان ألاما و ويلات ، و ذلك بتجويزها لتكفير المسلمين ، و سفك دمائهم ، و هتك أعراضهم ، و سلب أموالهم و ممتلكاتهم بغير وجه حق .

و لذا أرى لزاما أن يكون القائمون عليها يتصفون ببعض المواصفات التي تعصمهم من الانحراف و الانزلاق في مطبات التطرف و الغلو ، و التي منها [26]:

1 ــ أن يكون المفتي حافظا لكتاب الله تعالى، ملما بأحكامه وإرشاداته، وحلاله وحرامه، وناسخه ومنسوخه، ومجمله ومفصله، ومنطوقه ومفهومه، حسن التلاوة له والفهم فيه.

2 ــ أن يكون حافظا لجملة من أحاديث رسول الله ﷺ عارفا بأحاديث الأحكام محيطا بسيرة النبي ﷺ مدركا لسننه، ملما بحياته والشبه التي يثيرها الأعداء حول شخصه الكريم، وسيرته العطرة، عارفا كيف يدفع هذه السفاسف، متأسيا بقدوته المثلى وأخلاقه العليا وبالجملة أن يكون القائم على الفتوى صورة من رسول الله ﷺ.

3 ــ أن يكون ملما بالتاريخ الإسلامي، فالتاريخ عبرة والأيام ذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين.

4 ــ أن يلم بالقصص القرآني، قال تعالى : **﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾** [27].

5 ــ **أن يكون حسن القدوة** : فما أقبح من ينصح الناس و يجيبهم عن فتاواهم ، وهو في حاجة إلى نصح، وما أجمل من يطب الناس وهو مريض و إليك ما قاله **أبو الأسود الدؤلي (رحمه الله)** :

يا أيها الرجل المعلـــــم غيـــــره ... هلا لنفسك كان ذا التعليـــم

تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا ... كيما يصح به وأنت سقيـــم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيهـــــا ... فإذا انتهت فأنت حكيـــم

وهناك يسمع ما تقول ويشتفـــى ... بالقول منك وينفع التعليـــم

لا تنـــه عن خلق وتأتي مثلـــــه عـــار عليك إذا فعلت عظيـــم

وما أبشع صورة العالم الذي لا يعمل بعلمه. كما ورد في صحيحي البخاري ومسلم "يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون يا فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟، فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه".

وصدق الشاعر العربي وهو يخاطب العلماء بقوله :

يا علماء الأمة يا ملح البلد من يصلح الملح إذا الملح فسد

6 ـ **أن يكون القائم على الفتوى حاضر البديهة** : إذ يمكنه الرد عن تساؤلات و استفسارات المستفتين من مخزونه و رصيده العلمي الذي تحصن به لأداء هذه الوظيفة التي ينبغي أن توكل للأذكياء و النابغين من أبناء هذه الأمة ، و لنا في تاريخ سلفنا ما يؤيد ذلك ، فهذا علي بن أبي طالب يفتي الناس وهو على المنبر في مسألة عالت في المواريث، إذ جاءته الزوجة تسأل عن ميراثها من زوجها الذي ترك أما وأبا وبنتين وزوجة، فقال الإمام علي رضي الله عنه على المنبر "الحمد لله الذي يحكم بالحق قطعا، ويجزي كل نفس بما تسعى، وإليه المآب والرجعى، وقد صار ثمن الزوجة تسعا" لأن المسألة تزاحمت فيها أنصبة أصحاب الفروض فعالت من الأربع والعشرين للسبع والعشرين وأصبحت تعرف عند الفرضيين بالمنبرية لإفتاء علي رضي الله عنه فيها من على المنبر، ومن داخل مسجد الكوفة[28].

7 ـ **أن يكون المتصدر للفتوى من ذوي الكفاءات القادرة على رد شبه الغالين و المتطرفين** : بحيث يكون سريع الرد، قوي العارضة شديد المعارضة في الحق، ومثال ذلك ما وقع للإمام الشافعي (رحمه الله) أنه حضر درسه بجامع عمرو بن العاص رجل من خراسان فسأل الشافعيّ عن الإيمان، فقال له الشافعي : ما تقول أنت فيه؟ فقال الرجل : "الإيمان قول، فقال الشافعي من أين قلت بذلك؟ قال الرجل من قوله تعالى : ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ [29] فصارت الواو فصلا بين الإيمان والعمل، فسأله الشافعي : أعندك الواو فصلا قال : نعم، قال الشافعي : إذن كنت تعبد إلهين إلها في المشرق، وإلها في المغرب، لأن الله تعالى يقول : ﴿**رب المشرقين ورب المغربين**﴾ [30]. قال الرجل : سبحان الله

أجعلتني وثنيا؟ قال الشافعي : بل أنت جعلت نفسك كذلك بزعمك أن الواو فصل[31].

كما ينبغي على من يتصدر للفتوى أن يتحرى الاعتدال في فتاواه وأن يتبع فيها طريق الدعاة لا طريق القصاة فيخرج الناس من دائرة الإسلام بفتاوى متطرفة يدعمها تتطع وعلو، ومن ذلك ما وقع لأبي حنيفة لمّا قدم عليه جمع من الخوارج شاهرين سيوفهم قائلين : يا أبا حنيفة نسألك عن مسألتين إن أجبت نجوت وإلا قتلناك، قال : أغمدوا سيوفكم فبرؤيتها ينشغل قلبي، قالوا : كيف نغمدها ونحن نحتسب الأجر الجزيل بإغمادها في رقبتك، قال : سلوا إذن، قالوا : إحداهما رجل شرب الخمر فمات سكرانا، والأخرى امرأة حملت من الزنا فماتت في ولادتها قبل التوبة أهما مؤمنان أم كافران؟ فمأليهما من أي فرقة كانا أمن اليهود؟ قالوا : لا، أمن النصارى؟ قالوا: لا، أمن المجوس؟ قالوا : لا، فممن كانوا؟ قالوا : من المسلمين، قال : أجبتم، قالوا : أهما في الجنة أم في النار؟ قال أقول فيهما ما قال الخليل ــ عليه السلام ــ فيمن هو شر منهما **﴿فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾** [32]، أو كما قال عيسى ــ عليه السلام ــ **﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك انت العزيز الحكيم﴾** [33]

فنكسوا الرؤوس وانصرفوا قائلين تبرأ إلى الله مما كنا فيه[34].

ثالثا ــ الاهتمام برسالة المسجد :

إنّ المتأمل لكتاب الله تعالى يلحظ اهتمامه البالغ بالمسجد، إذ ورد ذكره فيه ستا وأربعين مرة [35] :

ومعلوم أنّ شيئا يتكرر ذكره هذه المرات كلها إلا دليل على أهميته ومكانته في حياة الأمم والأفراد وأن له دور القيادة والريادة في التوجيه والتعليم والإرشاد. هذا و إنّ الراني والدارس لتاريخ المسجد في الإسلام يقرّ بالدور الرسالي الذي كانت تلعبه هذه المساجد في عصورنا الذهبية المجيدة .

و لا شك ان على عاتق المسجد مسؤولية ضخمة تنوء بحملها الجبال الراسيات في محاربة ظاهرتي الغلو و التطرف ، و ذلك عن طريق تنوير فئات المجتمع من خلال الخطب المنبرية و دروس الوعظ و الإرشاد ، و حلق العلم التي تقدم من خلالها الصورة الصحيحة للإسلام باعتباره دين الوسطية و الاعتدال و الرحمة و نبذ العنف و الغلو و التطرف .

و مما يؤسف له أن ما نشاهده اليوم من غلو و تطرف في واقعنا المعيش يلقي على الخطاب المسجدي في بروزه جزء من المسؤولية ، إذ لم يعد يؤدي رسالته كما كان يؤديها عبر تاريخ الإسلامي العطر .

و لقد وجدت نفسي و أنا أكتب هذه المداخلة أحاور المسجد قائلا [36] :

يا مسجدي يا موطن الضيـــاء ∴ ومنبع الوصـــال والإخـــاء
ومسكن الغريب في تاريخنـــا ∴ ومجمع العلـــوم والنقـــاء
جيوشنا من مسجدي قد خرجت ∴ وحطمت معاقـل الأعـــداء
علـى حصائـر لمسجـدي ∴ قد أرسيت دعائـم القضـــاء
وشيّدت بساحكـم مجالـس ∴ للذكر والعلـوم والإفتـــاء
قد جئتُ يا مسجدنا لبابكـم ∴ مفتشا عن هذه الأشيـــاء
لم ألقيا فقلـت يـا إلهنـــا ∴ فما الذي دهى حظيرة السمـــاء
وما الذي أفرغها من روحهـــا ∴ وما الذي أرجعها حجارة جوفـاء
وما الذي جرّدها من دورهـــا ∴ وما الذي أخرجها من عالم الأحياء
ولم تجد أسئلتـــي إجابـــة ∴ إلى نطقت صخورهـا الصمّـاء
قائلة أحرجتـنـــي بسؤالكـــم ∴ رسالتي قد عقها الأبنـــاء
بساحتي تقاتلـوا تطاحنـــوا ∴ وغيرهم قد جاوز الجـــوزاء
وقزّمت رسالتي وأهملـــت ∴ مبادئي شرائدَ دهمـــاء
وبعدما حـاورني وزدّ عـــن ∴ أسئلتي أجهشتْ بالبكـــاء
ثم انصرفتُ مرغـــدا ومزبـــدا ∴ مرتدّا سيرجع الضيـــاء

رابعا ــ احترام التخصص : لو بحثنا في أسباب التطرف و الغلو لوجدنا من أهمها و أبرزها عدم احترام التخصص ، " إذ لكل علم أهله ، و لكل فن رجاله ، فكما لا يجوز للمهندس أن يفتي في أمور الطب ، و لا الطبيب أن يفتي في شؤون القانون ، بل لا يجوز لطبيب مختص في فرع معين أن يقتحم حمى فرع اخر ، فكذلك لا يجوز أن يكون علم الشريعة كلأ مباحا لكل من هب و درج من الناس ، بدعوى أن الإسلام ليس حكرا على فئة من الناس " ، و هذه كلمة حق أريد بها باطل ، فكم نتج عن ادخال عدم المتخصصين أنوفهم في مسائل الشريعة من مآس

و ويلات ، و تناحر و تطاحن ، و غلو و تطرف في الأحكام الصادرة عن غير علم و لا هدى و لا كتاب منير ، و قد عاب أسلافنا من العلماء العاملين على بعض من يتهافتون على الفتوى دون علم و تثبت و روية كافية ، و كان مما قالوه في ذلك : " إن أحدهم يفتي في المسألة لو عرضت على عمر لجمع لها أهل بدر "[37].

و لذا ينبغي احترام التخصص لتكون الأحكام صادرة عن علم و بصيرة لا عن جهل و هوى ، و بهذا يتم القضاء عن الأحكام المتطرفة التي غالبا ما كانت سببا في فساد العباد و البلاد .

خامسا ــ القيام بحملات نوعية واسعة النطاق عبر جميع وسائل الإعلام المرئية ، و المسموعة ، و المكتوبة قصد تعريف الناس بمخاطر الغلو و التطرف على الفرد و المجتمع و الممتلكات و الأموال و الأرواح ، تكون مقرونة ببيان محاسن الوسطية و التيسير و الاعتدال .

سادسا ــ التشبع بثقافة أدب الاختلاف : إذ ينبغي أن يتأصل في النفوس احترام الرأي و الرأي المخالف ، بحيث تتجذر ثقافة أدب الاختلاف في الأذهان ، فلا يكون الاختلاف مدعاة للغلو و التطرف في حق المخالف ، و ذلك بتكفيره ، أو التشهير به ، أو نعته بأبشع النعوت و أسوئها .

و لنعد إلى تاريخنا الإسلامي المجيد لنجتزىء منه بعض الشذرات العطرة من التشبع بثقافة أدب الاختلاف لدى الصحابة ﭫ ، و إليك بعضها[38] .

فهذا ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ كان يرى أن الجد ينزل منزلة الأب و يسقط جميع الإخوة و الأخوات في الميراث مخالفا في ذلك زيد بن ثابت الذي يرى توريث الإخوة معه ، و لا يحجبون به ، حتى قال ابن عباس يوما : " ألا يتقي الله زيد ، يجعل ابن الابن ابنا ، و لا يجعل أب الأب أبا ، و قال : " لوددت أني و هؤلاء الذين يخالفونني في الفريضة نجتمع ، فنضع أيدينا على الركن ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين "[39].

فابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ الذي بلغت ثقته بصحة اجتهاده و خطإ اجتهاد زيد هذا الحد الذي رأيناه ، رأى زيد بن ثابت يوما يركب دابته ، فأخذ بركابه يقود به ، فقال زيد : تنحّ يا ابن عم رسول الله ﷺ ، فيقول ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا و كبرائنا ، فقال زيد : أرني يدك ، فأخرج ابن عباس

يده ، فقبلها زيد ، و قال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ، و حين توفي زيد قال ابن عباس : هكذا ذهاب العلم ، لقد دفن اليوم علم كثير .

و هذا عمران بن طلحة الذي كان في الصف المناوىء لعلي بن أبي طالب ﷺ يدخل عليه بعد الفراغ من معركة الجمل فيرحب به و يدنيه و يقول : " إني لأرجو أن يجعلني الله و إياك من الذين قال الله ﷻ فيهم : ﴿ **و نزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين** ﴾ [39]

ثم اخذ يسأله عن أهل بيته فردا فردا و عن غلمانه و أمهات أولاده [40]

سابعا ــ عدم مقابلة التطرف بالتطرف : إذ لا ينبغي مواجهة التطرف الفكري بتطرف فكري مماثل لأننا لو فعلنا ذلك لوقعنا في نفس الهاوية التي وقعوا فيها ، حيث نزيدهم بتطرفنا عنادا و إصرارا على غلوهم [41]، و لنا في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ أسوة حسنة في موقفه من أهل الجمل الذين قاتلوه حين سئل عنهم أمشركون هم ؟ فيقول ﷺ : " من الشرك فروا ".قال : أمنافقون هم ؟ فيقول ﷺ : " إن المنافقين لا يذكرون الله الا قليلا ".فيقال : فمن هم اذن ؟ ، فيقول : " إخواننا بغوا علينا " [42].

ثامنا ــ إصلاح البرامج و المناهج التعليمية : و هنا تبرز مكانة المدرسة ببرامجها و مناهجها في إخراج الفرد السوي ، الذي يقدر لرجله قبل الخطو موضعها، و الذي يزن الأمور بميزان الحق و العدل و المصلحة، لا بميزان التطرف و الغلو .

ولذا ينبغي أن تكون البرامج المدرسية ، لاسيما في مناهج التربية الإسلامية، و المدنية، و التاريخ، و الأدب مشبعة بمبادىء التسامح ، و قيم التآخي و السلام، و نبذ العنف والتطرف و الغلو، حتى تنشأ ناشئتنا على هذه المبادىء السمحة التي تعصمها من الوقوع في مطبات هذه الظاهرة الغريبة عن مجتمعاتنا وقيمنا الأصيلة.

تاسعا ــ عدم الاستعجال في إقامة الناس على الحق : إذ ينبغي إقامتهم عليه بالتدرج شيئا فشيئا. حتى لا يؤدي ذلك إلى نفورهم منه و تطرفهم في تركه جملة وتفصيلا، و من أحسن الأمثلة على ذلك أن عمر بن عبد العزيز ﷺ جاءه أحد أبنائه منتقدا قائلا له : " ما لك لا تنفذ الأمور ؟ فوالله ما أبالي لو أن القدور غلت بي و بك في الحق ".

قال عمر ﷺ : " لا تعجل يا بني فإن الله ذم الخمر مرتين و حرمها في الثالثة . و إني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعوه جملة ، و يكون من ذا فتنة ".

ثم قال : " و الله ما أستطيع أن أخرج لهم شيئا من الدين إلا و معه طرف من الدنيا، أستلين به قلوبهم ، خوفا من أن ينخرق علي منهم ما لا طاقة لي به " [43].

عاشرا ــ الحفاظ على وحدة المسلمين و تجنب المعارك الطاحنة بسبب الخلافات الفقهية : و من المواقف العملية في ذلك أن أحد العلماء زار إحدى القرى لإلقاء محاضرة بها في رمضان ، فوجد أهل القرية قد انقسموا إلى فريقين يختصمان حول صلاة التراويح . أهي عشرون ركعة كما صليت في عهد عمر ، و توارثها الناس على مر القرون بعد ذلك ، أم هي ثماني ركعات فقط ، كما ورد أن النبي ﷺ ، كان لا يزيد على ذلك في رمضان و لا غيره ؟ رأيان تعصب لكل منهما فريق من أهل البلدة حتى كادا يقتتلان و كل يدعي أنه على الحق و السنة ، و أن الآخر على خطأ و بدعة . فلما عرفوا أن هذا العالم قادم إليهم ، رضوا أن يحتكموا إليه فيما اختلفوا فيه ، و كل فئة تحسب أنه سيحكم لها ضد الأخرى و لكن ذلك العالم اتجه بهم وجهة أخرى .

فقال : ما حكم صلاة التراويح ؟

قالوا : سنة ، يثاب من فعلها ، و لا يعاقب من تركها .

قال : و ما حكم الأخوة بين المسلمين ؟

قالوا : فريضة دينية ، و دعامة من دعائم الإيمان .

قال : و هل يجوز في شرع الله أن تضيع فريضة للمحافظة على سنة ؟

إنكم لو أبقيتم على أخوتكم و وحدتكم ، و انصرفتم إلى بيوتكم ، ليصلي كل منكم في بيته ما ترجح له و اطمأن إلى دليله : ثماني ركعات ، أو عشرين ، لكان خيرا من أن تختصموا و تقتتلوا [44].

و في الختام : نحسب أننا أمطنا اللثام عن بعض الوسائل و السبل الكفيلة بمعالجة ظاهرتي الغلو و التطرف من خلال النقاط المطروقة آنفا ، سائلا المولى ﷻ أن يطهر البلاد العربية و الإسلامية من هذه الآفات التي تنخر كيانها و تفت عضدها ، و تجعلها عرضة للتفكك و التشرذم إنه سميع قريب مجيب ، و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم تسليما كثيرا طيبا مباركا فيه ، و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الهوامش :

---

[1] – النساء : 171 .

[2] – محمد الشريف الرحموني : الرخص الفقهية من القرآن و السنة النبوية ص 160 .

[3] – المرجع نفسه ص 161 .

[4] – الدارمي : السنن ، كتاب النكاح ، باب : النهي عن التبتل 2 / 178 – 179 .

[5] – الأعراف : 32 .

[6] – البقرة : 185 .

[7] – الشرح : 5 – 6 .

[8] – الجصاص : أحكام القرآن 3 / 473 .

[9] – البقرة : 286 .

[10] – النساء : 28 .

[11] –المائدة : 6 .

[12] – الحج : 78 .

[13] – الغدوة بالفتح سير أول النهار ، و المقصود استعينوا على أداء العبادة و مداومتها بإيقاعها في الأوقات المنشطة كالغداة . انظر فتح الباري 1 / 95 .

[14] – الروحة بالفتح السير بعد الزوال

[15] – الدلجة : بضم أوله و فتحه و إسكان اللام السير آخر الليل ، و المقصود إيقاع العبادة في هذه الأوقات .

[16] – البخاري كتاب : الإيمان ، باب : الدين يسر ، و قول النبي ﷺ : " أحب الدين إلى الله الحنفية السمحة " . 1 / 93 .

[17] – ابن حجر : فتح الباري. 1/94 ــ 95.

[18] – مسلم. كتاب الفضائل باب : مباعدته ــ صلى الله عليه وسلم ــ للآثام. واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته. 4/1813.

[19] – الدارمي. كتاب المناسك. باب : فيمن قدم نسكه شيئا قبل شيء. 2/89 ــ 90.

وهو في البخاري، كتاب الحج، باب : "الفتيا على الدابة". 569/3. ومسلم، كتاب الحج، باب : "من حلق قبل النحر". 948/2. وأبو داود كتاب المناسك، باب : "فيمن قدم شيئا قبل شيء في صحيحة". 211/2.
والترمذي، كتاب الحج، باب : "ما جاء فيمن حلق قبل أن يذبح". 358/3. وابن ماجه، كتاب المناسك، باب : "من قدم نسكا قبل نسك" 1014/2، ومالك : الموطأ، كتاب الحج، باب : "جامع الحج". 421/1.

[20] – ابن حجر : فتح الباري. 571/3.

[21] – البخاري، كتاب الأذان، باب : "من أخف الصلاة عند بكاء الصبي". 202/2.

[22] – الجامع الصحيح، كتاب صلاة التراويح، باب : "فضل من قام رمضان". 250/4 ــ 251.

[23] – مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب : "في الأمر بالتيسير وترك التنفير".

[24] – البخاري، كتاب الأذان، باب : "إذا طول الإمام وكان للرجل حاجة فخرج فصلى". 192/2. ومسلم كتاب الصلاة، باب : "القراءة في العشاء". 339/1 ــ 340. والنسائي، كتاب الافتتاح، باب: "القراءة في العشاء الآخرة بسابح اسم ربك الأعلى" وباب : "القراءة في العشاء الآخرة بـ والشمس وضحاها" والدارمي : كتاب الصلاة، باب : "قدر القراءة في العشاء" والفضل له.

[25] – القرضاوي، الفتوى بين المنضبط والمتفلت. 25-28.

[26] – محمد العوضي سلام : من الظلمات إلى النور ص 32 – 57 .

[27] – يوسف/111

[28] – سعيد بوبزري : أحكام الميراث بين الشريعة الإسلامية وقانون الأسرة الجزائري، ص 139.

[29] – الكهف : 107 .

[30] – الرحمن/15

[31] – طوايبة نور الدين : دور المسجد في المجتمع الإسلامي المعاصر، نقلا عن الشرقاوي : أئمة الفقه التسعة، ص 157-158.

[32] – إبراهيم/38

[33] – المائدة/120.

[34] – طوايبة : دور المسجد في المجتمع الإسلامي المعاصر، ب بحث ماجستير مخطوط بقسم التوريث ــ جامعة الأمير عبد القادر، ص 103.

[35] – محمد الداودي المسجد في الكتاب والسنة وأقوال العلماء، ص 9-50 فاضله فيه نفيس.

[36] – هذه الأبيات لصاحب هذه المداخلة الدكتور : نصر سليمان.

[37] – يوسف القرضاوي : الصحوة الإسلامية بين الجحود و التطرف ص 203 – 204 .

[38] – طه جابر فياض العلواني : أدب الاختلاف في الإسلام ص 67 – 68 .

[39] – الحجر : 47 .

[40] – طه جابر فياض العلواني : أدب الاختلاف في الإسلام ص 69 .

[41] – يوسف القرضاوي : الصحوة الإسلامية بين الجحود و التطرف ص 147 .

[42] – البيهقي : السنن الكبرى 8 / 173 .

[43] – الطيب برغوث : الواقعية في الدعوة إلى الإسلام ــ ضرورتها السبيل إليها ــ ص52 .

[44] – يوسف القرضاوي : الصحوة الإسلامية بين الجحود و التطرف ص 169 – 170 .